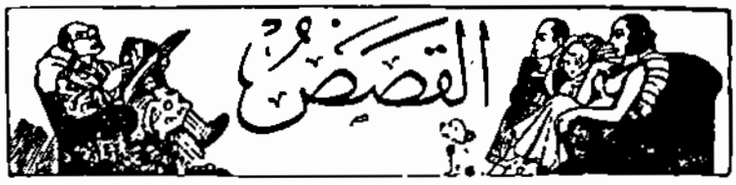

قصة مصرية :

ألـــوان . . .

للاستاذ نصرى عطا الله سوس

كان قطار الليل يشق طريقه المظلم إلى الصعيد ...

وكانت هذه المرة الأولى التى يستقل فيها الدكتور فؤاد هذا القطار فى طريقه إلى مقر عمله الجديد

لقد عاش طول حياته فى العاصمة ، وكان طبيباً بإحدى مستشفياتها .. وأخيراً ، وبعد نزاع مع رئيسه ، نقل إلى إحدى المستشفيات الصغيرة بأعالى الصعيد ، وكان يمكنه أن يستقيل ويكتفى بإيراد عيادته التى تدر عليه الكثير ... وقد فكر فى ذلك حتى أضناه الفكر ، فليس من السهل على رجل ألف حياة العاصمة أن يجد نفسه فجأة فى جو لم يألفه ، وحياة خشنة جافة هزيلة لم يعتدها !

ولكن تياراً أقوى كان يدفعه فى الاتجاه الآخر : لم يكن قد أفاق بعد من صدمة هائلة أذهلته عن كل شىء وأنسته كل الاعتبارات ... كان يود أن يهرب من المكان الذى كان مسرحاً لمأساة قلبه ، والذى كان يذكره بها وينكأ جراحه كلما قاربت الالتئام !

لقد فكر وفكر ... وأخيراً فضّل أن يهرب من أشباح الماضى التى كانت تلاحقه فى عناد ، وتعذب قلبه ، وتغمره فى ليل أبدى لا فجر له !

ولم يكن الدكتور فؤاد من أولئك الأطباء الذين تتركز كل حياتهم فى مهنتهم ، فيحشون أدمغتهم بالمعلومات الطبية التى يطبقونها تطبيقاً أعمى ، بينما يشاركون فى الوقت نفسه رجلَ الشارع فى ثقافته وأخلاقه وكل غرائزه ، بل كان شخصية ممتازة ، رقيق العاطفة ، مرهف الأعصاب ، ولوعاً بالأدب والموسيقى ، ظامئاً إلى الحياة الدسمة الغنية بمختلف العواطف والإحساسات ، ولم يكن ينقص حياته إلا شيئاً واحداً لا معنى لأى شىء فى الحياة بدونه : ذلك المخلوق الناعم الحلو الذى تمسح ابتسامته السحرية كل الهموم والمتاعب ، وتخلق فى النفوس الشجاعة والعزم والأمل ، ذلك المخلوق الجميل الرقيق الذى نسميه « المرأة » ، وعندما رآها بعد سنوات طويلة من الحنين والانتظار ، ظن أنه قد عثر على ضالته وحقق أمله ، فاندفع وراء الخيال ، وراح ينسج الأحلام ، ويكيف حياته تكييفاً جديداً على هدى الكوكب الجديد الذى غمر حياته بالنور ...

وبعد عامين كاملين عرف أنه مخدوع ... وأن الشيطان كان يسرق القربان الذى يتقرب به إلى « كيوبيد » فى معبد الحب ويستحله لنفسه ... واستحالت حياته إلى بحر من الدموع ، وكره العاصمة الكبيرة والحياة فيها ، فلما فوجئ بخبر نقله لم يحزن كما يفعل الموظفون ، بل تلقى الخبر بفتور ، وحمل كتبه وموسيقاه ليهرب من الحياة البراقة الزائفة ، وليخلو إلى نفسه علّه يستطيع أن يلهمها العزاء والسلوان ! إنه سيحقق حلماً جميلا طالما تمنى تحقيقه ، حياة الطبيعة الساذجة الجميلة ، والمساحات الشاسعة الخضراء التى قرأ عن سحرها وجمالها ، وما توحيه إلى النفس من صفاء ، والناس السذج البسطاء الذين لم يتعلموا شرور المدن الكبيرة وآثامها !

إن حياة المدن تفرض نفسها على الإنسان وتستعبده وتخنق فيه حياة العاطفة والروح ... وحياة العاطفة والروح هى كل ما ينشده الطبيب الحزين ، إنه يأمل أن يجد فى صدر الطبيعة ما لم يعثر عليه فى صدر المرأة !

* * *

وتمكن من أن يروض نفسه على حياة الريف ويستسيغها ، ووجد فى بساطة الحياة فيه الراحة التى يجدها الملاح بعد عاصفة هوجاء هدأته بالفناء كان فى الصباح يؤدى عمله فى هدوء ، وفى الأمسية يخرج للرياضة بين الزارع الخضراء ، وعنده بعد ذلك كتبه وموسيقاه ، ولكنه ظل شديد الانقباض عن الناس زاهداً فى الحديث معهم حتى فى رؤيتهم . . !

ووجد « فؤاد » شيئاً من العزاء الذى كان ينشده ولكنه كان عزاء يمازجه كثير من اليأس .. والفلسفة . كان يقول لنفسه إن الذى يعيش مثله بين المرضى ويرى الإنسانية تتألم وتتعذب بهذا القدر ، ويشاهد كل يوم شبح الموت يلهو بالأرواح ، لابد أن يتعلم كيف يزن مسرات الحياة وفواجعها ، ويميز صحيحها من باطلها ... إن أوجاع الحياة توحى إليه بتفاهتها ، تلك الحياة التى نجهد أنفسنا فى سبيلها حتى الجنون ! نفنى السنين تلو السنين فى التاعب والهموم ، حتى يحل خريف العمر وتذبل أوراقه ، عندئذ نبحث عن ثمار جهودنا وعنائنا فلا نجد شيئاً ! وتهب علينا ريح باردة تهمس فى آذاننا أن الكل باطل ، حينئذ ، وحينئذ فقط ، ندرك ... ونشيح بوجوهنا عن الحياة .

... وبمثل هذه الأفكار كان يعزى نفسه عما عانه من مباهج الحياة ومفانيها ، ومرت شهور وهو منهك فى عمله وبقايا همومه وأفكاره القاتمة التى كان يطاردها فتغيب عنه حيناً ثم تعاوده فى قسوة وعنف ...

وفى صباح أحد الأيام كان جالساً كعادته إلى مكتبه يطالع صحف الصباح ... وفجأة دخلت فتاة ... وكان من عادته أن يطلب من أولئك الذين يقتحمون عليه خلوته أن ينتظروا بفناء المستشفى حتى يحين موعد العمل ، ولكنه نظر إليها ، وسكت ... وبعد برهة سألها فى صوت وادع عما تطلب بينما كانت عيناه تلتهمانها التهاماً ... !

وأسبلت جفونها ، واصطبغ وجهها بلون الدم ، وتلعثمت وهى تجيب . ودعاها برفق أن تقترب ... وتخبره عن مرضها .

واقتربت ، وأخذت تقص عليه أعراض مرضها بصوت ناعم حالم ... بينما كان هو يتأملها فى نشوة سعيدة كأنه يتأمل أثراً فنياً خالداً : كانت ترتدى ملاءة حريرية تحتها جلباب باهت اللون وفى إحدى يديها قارورة فارغة ، وفى الأخرى تذكرة أمراض باطنية ، وكان فى مشيتها فتور ثمل كأن رأسها قد حمّل أكثر مما يسع من الأحلام ، وفى عينيها ذلك الحنين الغائب الذى تشعه عيون الفتيات عند ما تطرق قلوبهن تلك الإحساسات الحلوة الآسرة التى لا يدركن كنهها ، ونظراتها كطيور تائهة تبحث عن وكرها فى عيون أليف حنون يقتنص الأحلام الهائمة فى السماء ويريقها فى أذنيها بصوته الحلو الرقيق ... !

وتناول منها التذكرة وقرأ البيانات المدونة عليها فعرف أن اسمها « عزيزة » وعمرها سبعة عشر عاماً .

كانت تشكو ورماً بسيطاً فى أصابعها وساقيها ، وتناول يدها فى كفه وأخذ يتأملها ، واهتزت يده اهتزازاً خفيفاً وهو يضغط على أصابعها ليعرف طبيعة الورم ، ثم فحصها فحصاً دقيقاً ، وطلب منها أن تمتنع عن تناول بعض المأكولات ، وزودها بنصائحه ثم أعطاها ما يلزمها من دواء وانصرفت .

وجلس يفكر وقد ملكت عليه نشوته بحسنها وودعاتها كل حواسه ... أين كان هذا الكنز مختفياً ؟ لِمَ لم تحضر قبل الآن ؟ لقد جاءت ثم ذهبت كأنها الحلم السعيد فى هدأة الليل ، وكانت اللحظات التى قضاها وهو يتأمل هذا الوجه السماوى الجميل من أسعد لحظات عمره ... إن هذا الجمال من نوع نبيل يوحى بالعبادة أكثر مما يوحى بالحب : عيناها عسليتان يشمان وداعة وطهراً ، وبشرتها خمرية يعلوها تاج كثيف من الشعر الفاحم ، وكانت نحيفة وهو يكره الجسم المكتنز الذى يوحى دائماً بالرغبات كما أنها أطول من رأى من فتيات القرية ! !

ثم ابتسم وهو يقول لنفسه : « ألأنها جميلة تهتم بها أكثر من بقية المرضى ؟ ؟ قد تكون الدميمة المشوهة الخلقة أكثر احتياجاً إلى العطف والرعاية » ، ولكنه هرب من الإجابة عن سؤاله ، وأشعل سيجاراً وأخذ يغنى بصوت خافت ، وود لو أمكنه أن يرقص أيضاً .

وعند ما بارحته عزيزة لم يأمل أن يراها مرة ثانية ، فقد مضى عليه فى هذا المستشفى نصف عام لم تحضر خلاله إلا هذه المرة ، كما أن ملابسها وأناقتها — بالنسبة للقرويات — تدل على أنها تنتسب إلى الطبقة الموسرة التى لا تستسيغ التردد على أماكن العلاج العامة ...

ولكنها عادت فى الأسبوع التالى ، وكانت هذه المرة أكثر اعتناء بهندامها وشعرها . وترددت كثيراً قبل أن تتقدم نحوه . أما هو فكان يرقب خجلها وتردها فى سرور .

وأخيراً جمعت شجاعتها وذهبت إليه ... ولاحظ وهو يحدثها أن أسنانها أكثر بياضاً مما كانت عند مارآها فى الأسبوع الماضى وأخذ يلقى عليها عشرات الأسئلة حتى تطول وقفتها أمامه وأحس وهو يحدثها أن الثلوج التى ظلت تكتنف قلبه منذ كارثته الأولى بدأت تذوب وتفسح له مجال الحياة مرة أخرى .

كان يكلمها وفى عينيه وجرس صوته أطياف من الشوق والحنان ود لو تجسمت شخصاً حيا يطوقها ويغمرها بالقبل .

ولم تلمح هى فى عينيه ذلك الظمأ الخشن الذى ألفت أن تراه فى عيون الرجال ، إن عيناه تشعان وداعة وسلاماً .

ثم فحصها مرة أخرى ، وأعطاها دواء جديداً وانصرفت .

واطمأنت إليه ، وبدأت تألفه ، واعتادت التردد على المستشفى مرة كل أسبوع على الأقل ، وكانت تتلمس مختلف المعاذير للذهاب إلى المستشفى ، وكان هو ينتظر حضورها فى نوع من القلق ، ورغب فى أن يتعرف بأبيها فلم تعبه الحيل ، ووثق صلاته به وغمره بكل عطفه ، الأمر الذى أثار دهشة الرجل ، وجعله يتساءل عما يرمى إليه الطبيب من وراء كل هذا الاحتفاء !

وأحس « فؤاد » أن جراحه القديمة تبرأ بسرعة ... إنه سعيد بهذه الطفلة البريئة الساذجة ! إنه لا يطلب أكثر من أن يراها لترد إليه من جديد إيمانه بالحياة ، وتريح عن قلبه الظلام المتراكم ، لقد غمرها بكل ما فى قلبه الأبيض من حنان ... ذلك الحنان الذى كان يعذبه لعدم عثوره على من يغدقه عليه ! ولاشك أن هذه القروية الساذجة ، الطاهرة القلب أجدر الناس به ...

وعند ما يمنح الطبيب قلبه للمريض تلهم العناية الآلهية يده وتحدث المعجزات ... وكانت عزيزة تبدو أكثر نضرة وشباباً فى كل مرة تذهب فيها إلى المستشفى . وكان هو يتأمل احمرار خديها فى فرح وهى تتقدم نحوه والخجل يكاد يقيد قدميها بالأرض آه ... لو كان شاعراً لنظم أروع قصائده فى هذه اللحظة التى يراها فيها وهى مقبلة عليه فى خطواتها الموسيقية الهادئة ...

واستولت الريفية الفاتنة على لب الطبيب الذى نزح من المدينة ناشداً السلوى والعزاء ... وأصبح خيالها يراوده فى اليقظة والمنام ... فمنذ ما كان يقرأ ، أو يفكر ، أو يتأمل الطبيعة والدنيا والناس فينبض قلبه بمختلف العواطف ، وتنتشى نفسه بأجمل الإحساسات ، كان يفكر فيها ويتخيلها جالسة إلى جانبه تشاركه عواطفه وإحساساته ويحدق فى وجهها فيرى بريق الذكاء فى عينيها والبسمة الحلوة تضىء قسماتها معبرة عن الفهم والفرح .

ولكن لا تلبث أن تظلل محياه سحابة من الأسى . إنه يسرف فى الخيال : وهى لا تستطيع كل هذا ... إنها القروية الساذجة التى تنطبق حدود الدنيا فى ذهنها على حدود القرية ...

ثم يعود يسأل نفسه لم يمكر صفو سعادته بمثل هذه الأفكار؟ إنه سعيد ، فرح ، يعيش فى دنيا جديدة من خلق عينيها . إن الغيوم الداكنة المتراكمة فى سماء روحه تتبدد تحت أشعة بسماتها الصافية ، ونظراتها الحلوة وتطرد من رأسه كل الأفكار السوداء التى قضى أشهراً وهو يجهد فى إقناع نفسه بها ، وتعلمه من جديد نفاسة الحياة وجمالها ، وعاد يأنس بالناس ويتبسط معهم ويجد فى حديثهم الساذج التافه كثيراً من التبطة والسرور .

وسارت الأيام فى طريقها والعلاقة بينهما تزداد قوة وعمقاً ، كان هو يتفانى فى خدمتها ويبدى لها من دلائل الوداد والحنان مايجعلها تحس بأنها أسعد أنثى فى الوجود ، لقد اعترفت له وعيناها تتألقان بشراً وحبوراً أن يوم حضورها إلى المستشفى هو « يوم العيد » عندها .. ، وتبادلا كثيراً من التذكارات ، وطلب منها مرة أن تهديه صورتها فاعترفت له فى كثير من الخجل أنها لم تقف مرة واحدة طول حياتها أمام آلة تصوير ، فصورها بنفسه عدة صور ... وكان يصله من العاصمة بين حين وآخر ما لا يتيسر وجوده فى الريف من الحلوى والفاكهة ؛ فلايطيب له تناول شىء منها إلا إذا أهداها بعضها فينتهز فرصة وجود أبيها معه ويعطيه من كل ما كان يرد إليه .

وآمنت هى بطيبة قلبه وإخلاصه ولم تعد تخجل منه أوتتهيبه بل كانت تجد سعادتها فى أن تعترف له بكل ما فى قلبها ...

وكان يلاحظ أحياناً على وجهها آثار الحزن والألم فيسألها عن سبب أشجانها ، ويلمح الدموع تجول فى عينيها وهى تعترف له بأنها كثيراً ما توصد على نفسها باب غرفتها ، وتظل تبكى وتبكى دون أن تدرك لذلك سبباً .

وأدرك هو أن قلبها يعذبها ، خاصة عند ما سألته فى صوت يقطر توسلا وضراعة لماذا يعيش وحيداً ؟ لماذا لا يحضر أمه أو إحدى أخواته لتؤنسه وتسهر على راحته ؟؟ وابتسم ، وعرف أنها لم تعد تقنع بهذه اللحظات العابرة التى تقضيها معه .

وابتدأ يحاسب نفسه ويسألها عن النتيجة !

لقد نبه فى قلبها الشوق ، وأشعل فيه الحب ، وها هو الحب يجلب معه الشجون والأفكار .

لقد فتنته جمالها وطيبة قلبها فهل يربط مصيرها بمصيره ؟ ظل وقتاً طويلا حائراً معذباً بين فكره وقلبه وقضى ليالى برمتها لا يذوق جفنه النوم وهو يفكر كيف تكون حياتها معه لو ... تزوجها ؟

ولكنه اقتنع أخيراً أن بينهما من الفروق ما يجعل الحياة الدائمة معها مستحيلة ، إنها القروية الساذجة التى لم تتلق من العلم شيئاً وقد تهلك عند ما ينزعها من تربتها لينزعها فى تربة أخرى !.. إن نواحى كثيرة فيه ستبقى مجهولة منها ... مستغلقة عليها وستشق كثيراً فى طريق الحياة المجهد وهى إلى جانبه لا تدرى بشقائه وبواعثه ، وسيسعد كثيراً فى دنيا الفكر والفن والطبيعة وهى إلى جواره لا تستطيع أن تَرِد ذلك المنهل العذب وتتيح لنفسها تلك المتع الرفيعة التى لا تملك الحياة نفسها أن تمنح أسمى أو أجل منها ...

ولم يخفف قراره هذا من لوعته وألمه : إنه سيحطم بيديه القلب الذى بدد وحشته ، وأنساه آلامه وهز أوتار قلبه هزات رائعة وسيعود يوماً ما إلى برد الوحدة من جديد ولا يجد إنساناً واحداً يستطيع أن يفرح ويحزن معه ...

وظل حائراً معذباً ولكن ماذا يفعل ؟ لقد أحبها أكثر من أى أنثى رآها فى حياته ولكنها ليست له ، هذه الجوهرة النفيسة ما زالت « خاماً » وفى حاجة إلى كثير من الصقل والتهذيب ، لقد عمرها بحنانه لأنها الزهرة الوحيدة فى تربة لا تنبت إلا الحشائش وكان سعيداً بها لأنه يراها لحظات كل أسبوع ولكن الحياة الدائمة بينهما قد تكون مثال التعاسة والشقاء ...

كانت كل هذه الأفكار تصطرع فى رأسه وهى تزداد حباً له وتفانياً فيه ، وهو لا يجرؤ على أن يبوح لها بمكنون ضميره ، وأهل القرية يتهامسون بأن طبيبهم سيتزوج من عزيزة ...

وظل هكذا موزع القلب بين حبه لها وإشفاقه عليها من عاقبة هذا الحب حتى صدر قرار نقله إلى بلدة أخرى ، وللمرة الثانية تلقى الخبر فى فتور حزين مؤمناً أن للقدر أحكامه وسخرياته .

وسمت هى نبأ نقله فجاءته والدموع تجول فى عينيها وسألته فى لهفة عن حقيقة الأمر ، وعما إذا كان سيعود أم لا ؟ ؟

وللمرة الأولى منذ حل هذه البلدة وجد الدموع تنحدر على خديه وقال لها : « الله يفعل ما يشاء يا عزيزة ، من يدرى ماذا سيحدث غداً ؟ » .

وأحس من نظراتها القلقة الحادة أن إجابته لم تُعد إليها طمأنينتها ، ولكنه لم يجد ما يقوله . وبعد أن قضت معه فترة انصرفت وهى تتعثر فى خطواتها ...

شعر بقلبه يمتلىء سخطاً على نفسه وندماً ! ليته ما عرفها ، إنه سيذهب ولا يخلف لها إلا الحسرة والألم والدموع ... ولكن هل كان يستطيع أن يحول بين قلبه وبين الهيام بها والافتتان بجمالها الرقيق وروحها العذب ؟ وهل فى طبيعة الأشياء أن يقف المرء فى طريق قلبه ويخنق عاطفته التى تفيض طهراً وسمواً ، وتغدق على حياته ، وحياتها هى ، أنبل المعانى وأجل الإحساسات ؟

وحل اليوم الموعود وغادر البلدة إلى مقر عمله الجديد .

وتوالت الشهور والأيام وذكراه تحتكر فكرها وقلبها ، وظلت تمنى نفسها أنه سيعود يوماً ويملأ حياتها فرحاً وسعادة .. وطال انتظارها وعادت إلى وحشتها وكآبتها ودموعها ... وكانت تجلس ساعات وحيدة ساهمة تحدق فى الطريق البعيد المؤدى إلى المحطة ... فقد يلوح شبحه فجأة قادماً من بعيد .

وتقدم ابن عمها لطلب يدها فرفضت .

أما هو فكثيراً ما كان يفكر فيها ويمتلىء قلبه شوقاً إليها ، ولا تكاد تمر ليلة دون أن يضع صورها أمامه ، ويطيل التأمل فيها ، ويسأل نفسه : « ترى من سيتزوجها ؟ ليس بين أهل قريتها من هو جدير بها ! » ثم يرفع وجهه نحو السماء ويضرع إلى الله أن يمنحها الرجل الذى يستطيع أن يمنحها السعادة والهناء !.

نصرى عطا الله سوس

سكك حديد الحكومة المصرية

عربات الدرجة الأولى الفاخرة المجيزة

بجهاز تكييف الهـــــواء

تمتعوا بالســـفر

بعربات تكييف الهواء الفاخرة

تقيكم حر الصيف وبرد الشتاء

مطبعة الرسالة